السبب في ذلك عدم توفر طبعة علمية لكتابه الفلسفي الرائس « المعتبر » الذي لا يزال مخطوطا في نسخ محدود وبعيدة عن متناول الباحثين · ومن القلائل الذين تنبهوا لاهميته المستشرق الفرنسي هنري كوربان الذي كتب عنه فصلا قصيرا في « تاريخ الفلسفة الاسلامية » نوه فيه بطرافة منهجه الفلسفي · كما ظهرت عنه دراسة اكثر تفصيلا كتبها الشيخ محمد رضا الشبيبي في « تراثنا الفلسفي ـ حاجته الى النقد والتمحيص » استند فيها الى نسخة شخصية من المعتبر · ونأمل ان يحظى هذا الكتاب بطبعة محققة لتيسير دراسته ·

عاش ابو البركات في بغداد حين كانت السلفية التركية قد اثارت مدا مناوئا للفلسفة ادى بها الى الانزواء · ومع انه شهد الحقبة التي استقلت فيها الخلافة العباسية عن التغلب السلجوقي فان الموقف السلفي لم يبرح آنذاك متمتعا بسطوته من خلال اتساع نفوذ الحنابلة وتدين اواخر الخلفاء العباسيين · واذا لم يكن ميسورا ايقاف النظر الفلسفي في مجتمع شكلت الفلسفة جزءا بنيويا من تكوينه الثقافي فلابد لفيلسوف يظهر في منعطف سلفي صعب من تلبية المتطلبات الخاصة بالوسط ، مصانعا ام مقتنعا··· ومن هنا اتخذ الفيلسوف البغدادي موقفا مناهضا من الفلسفة يستعيد موقف الغزالي في « تهافت الفلاسفة » و « المنقذ من الضلال » · وقد تصدى للرد على ابن سينا دفاعا عن لاهوت الاديان السماوية وقاده ذلك الى الرد على ارسطو : منطقا وميتافيزيقا · ويبدو ابو البركات بذلك لاهوتيا من طراز الغزالي الشاب ، لكن نقض المنطق والميتافيزيقا دفعه في مسالك فكرية جديدة شكلت في نهاية المطاف البديل والنقيض معا لمنطلقه اللاهوتي··· وينصب نقد ابو البركات للمنطق على عدم صلاحه للوصول الى حقائق الاشياء ، لا سيما حقائق الطبيعة ، وهو نفس النقد الذي وجهته الفيزياء الحديثة الى منطق ارسطو ، واورد لاثبات ذلك امثلة على الطريقة العقيمة التي يتعامل بها المناطقة مع الظواهر الطبيعية ، وعجزهم بالتالي عن تحقيق نتائج جديرة بالثقة · وسعى في نفس الوقت لعرض منهج بديل من خلال مقارنات لنتائج مختلفة تترتب على طريقتين في التفكير ، طريقة الفلاسفة وطريقته هو · ونلمس في ردوده ومقارناته منحى تجريبيا من النوع المألوف في دراسة الظواهر الطبيعية الملموسة · ورغم ان ابو البركات لم يقنن اصول هذه الطريقة ففي وسعنا ان نجد فيها بعض تأثيرات المنطق الاصولي القائم على المبادىء الثلاثة للاستقراء « اطراد العلة ، انعكاس العلة ، دوران العلة مع المعلول وجودا وعدما » يمكن ان يتحدد على هذا الاساس مركز الفيلسوف كأحد اعمدة المنهج التجريبي الذي حاول فريق من المسلمين استبداله بمنطق ارسطو الاستدلالي · ونأمل ان تساعد الدراسات اللاحقة على اضاءة هذا الفصل المهمل من تاريخ الفلسفة الاسلامية ·